الاهداء : الى عدنان مردم بك اعجاباً بقصيدته «الورقاء»

القاهرة في ضوء القمر [1]

لمحمد فهمي

يشارفها البدر كالمستهام ... ويسكب من نوره اللؤلؤي
فتنغمس في لجة من ضياء ... وتحلم ... يا حلمها العبقري
تأملْ تراها كزنجية ... ترامت على الشاطىء السجدي
ومدّت ذراعين عبر الرمال ... وعبر حقول الغنا السندسي
تغلّفها ساجيات الظلال ... ترفّ ببحر الضياء الغني
كأن الوجود سنا مقلةٍ ... وتلك الظلال ... السواد الشهي!

* * *

توسّدت النيل في مخدع ... يهدهده الموج عذبَ النغمْ
ويسكب في أذنيها الغناء ... نشيد القرون عريق القدم
يزف لها راقصات المُنى ... توثّب في ضمة تضطرم
فتنضو على صدره الستار ... وتبسم اذ شاقها في الحُلُم

* * *

رويدك ... هذي طيوف الدجى ... تهوّم للفتنة النائمهْ
تطوف على رَبوات النيام ... تفاوحهم بالرؤى الباسمه
تحذنَ من الضوء ضافي الذيول ... ملاعب رأد الغنا قاتمه
تسلّقنَ من ومضات الشعاع ... وغنّ في الوجنة العالمه
فكم في رحاب الفضا حمة ... وكم في امالي الذرى هائمة ...

* * *

وخلف النوافذ كم من خليٍّ ... وكم من غريقٍ بأشجانهِ
ومن ساهر يشكي برحهُ ... طواه الضنى بين أحضانهِ
ومهزوم في صراع الحياة ... يضج الضرير بأستانهِ
ومحتضن إلفه والمنى ... كطيرين في الروض في بانهِ
تساقوا من الحب ريق النعيم ... فيا للخلود ورضوانهِ

* * *

أرى الكون نضّد أعراسهُ ... ومدّ سرادقه للسماءْ

---

(١) أوحت الى الشاعر هذه القرية على جسر النيل .

فان سألتاه : « وهل اختصت بالغدر والخيانة أمة دون أمة ؟ » أجابنا متثبتاً : « كلا ، بل هم في الغدر والخيانة سواء :

أحلل بمن شئت ، لا يعدمك نائبة خان اليمانون طرّا والشآمونا »

فان قلت له : « لعل في غير أهل الشام واليمن ، من يرضيك من الشعوب » قال عابساً :

« كن من الروم أو من الترك او من الفرس أو من أي جنس من أجناس البشر ، واتخذ أي صورة من صور الاناسي فان هذه الصورة دليل على موفور شرّك ولؤم طبعك ، وما دمت على صورة الانسان فهي بلا شكّ :

« صورة خبرت بأنك مجبو ل على الشر ، والمهيمن خازي

واختلاف من منصب وبلاد واتفاق على رضاً بالمخازي »

الخير والشر

ان الشر — فيما يرى ابو العلاء — أصل تالدٌ في الطبع ، والخير عارض طريفٌ مستجدٌ عليه ، كما أن الظلمة أصل والنور طارىء :

« وكأن الشر أصل فيهم وكذا النور حديث في الظُّلَم »

وهو يرى أن كل ما يكتنف الباحث المنصف كفيل باقناعه بصحة هذا الزعم . فالطباع مجبولة على الشر : طباع الاغنياء والفقراء جميعاً . وهذا دليل على أنها تستقي من معين واحد . أنظروا الى ذلكم الفقير المعدم ، كيف يجزي حماره الذي يحمل عليه أثقالهُ أسوأ الجزاء ، دون أن يُسلِّفَ اليهِ الحمار إساءة أو يجترح ذنباً . إنهُ ليرى حماره قد جهده طول سيره وأعجزه ثقل حمله ، فوقف برهة قصيرة لعلهُ يستجمع قوته ويستأنف سعيه ، فلا يكاد الحمار يتوانى عن السير حتى يثور صاحبه عليه مغيظاً محنقاً . وقد نسي في لحظة واحدة كل ما أسلفهُ اليهِ ذلكم الخادم الصابر من صنيع ، فيهوي على جسمه بعصاه ، دون أن تأخذه فيهِ شفقة أو رحمة . ذلكم ما يفعلهُ الفقير ، وهو أقلُّ من الغني شرّاً [1] ، وأدنى الى تفهم معاني الرحمة والشفقة ومزاياها . فاستمع الى بيان المعري ، ولتمتع اذهاننا بتلك اللوحة الفنية الصادقة التي أبدع فيها تصوير تلكم المعاني الرائعة ، إذ قال :

« ألم تر أن الخير يكسبه الحجا طريفاً ، وأن الشر في الطبع مُتلَد

لقد رابني مَغْدى الفقير بجهله على العَيْر ضرباً ، ساء ما يتقلّد

يحمله ما لا يطيق فإن ونى أناخ على ذي فترة يتجلّد »

« يتبع »

(١) قال : « عبيد من خفف النفس أفترة »

وأبدى المفاتن شتى العيون تأنّق في وشيها ما يشاء
وتوّجها بعروس الدجى منير الفنون ورب البهاء
فسلسل روح الهوى في الوجود ونشّره في رحاب القضاء
وأشعل في كل حيّ جوًى ومس الجماد فلبى النداء!

* * *

فياناعمين بظل الفراش ألا البدر هبوا لتمجيده
تجلّى على صفحات السماء ووشّحهن بتنضيده
وفاض على الأرض من دونق سنا الخلد من لي بتخليده؟
هنا فتنة الكون في عُرسها هنا موكب النور في عيده...

* * *

هنا النيل يبدو كحوريّة لفتْ تتحم فيض الثنا
تمرّجُ بالنور أعطافها كأنّ بهنّ بريقَ الشذى
ورنو لها البدر في قبلة فينثر الناس أنّى رنا
ويرقص إشعاعُه في الضفاف على نغم طائف بالدُّنا

* * *

وسرّحتُ طرفيَ نحو الجزيرة تسّفر في اللجّة المقمره
فأبصرتُ فتنتها تستحيل ضباباً من النور في بحره
بدا الأيلكُ كالمسك في لونه سوادٌ . ولكن ما أبهره!
تحفُّ به خاشعات النخيل خشوع الخطيئة المغفره

* * *

وقفتُ كأني على ربوةٍ من الخلد أو سدرة المنتهى
تكشّف أسرارها الرائعات مفاتنَ تُعشي عيون الشهى
تجدّدها بعبير السناء وتحتسن الروح في أسرها
تعاوجها لَمَساتُ الخلود تداعب مثل الرؤى نجفنها
فتذهل سكرى على نغمة قبيل الملائك يعدو بها . . .

* * *

ولوّحت للبدر في نشوتي أفضتُ الضياء على الضفتين!
أرى النيل يخطر في بردة بريق الشعاع ووميض اللجين
وألمسه وشيَ ما حاكهُ سناؤك من رونق النيرين
ألا اسكب سناءك في راحتيّ فإني مددت لك الراحتين
لأنهل من يمك المجتبى وأروي، بقلبي لظى الشعلتين